أبو الأعلى المودودي -3-

الأخ زهير الشاويش

أثره في بلادنا

وأما عن أثر المودودي في بلادنا ، فقد كان كبيراً حتى أن اسم (الجماعة الإسلاميّة) قد اتخذته بعض التنظيمـــات اسماً لها .. بدوافع مختلفة .. بل جميع القيادات السياسية والفكرية كانت تُظهر أنها مرتبطة مع المودودي بأوثق ربـــاط .. حتى التي ليس بينها وبين منهجه وجماعته أي تشابه أو تماثل ..

وهذه كتبه منذ ثلاثين سنة تترجم إلى العربية ، وتطبع المرة تلو المرة ، بل وهذه المجلات الإسلاميّة لا يكاد يخلـــو عدد منها من مقال له أو عنه .. بل قلَّ الكتاب الإسلاميّ الذي ألف خلال هذه الفترة و لم يتأثر بفكر المودودي ، أو النقل عنه ، أو المسخ لآراءه -ذكر ذلك أو لم يذكر- .

ومع كل هذا فإن أثر المودودي في بلاده أكبر من أثره في بلادنا .. ذلك أنه عاش في تلك البلاد وعرف النـــاس وعرفوه .. وأنه كتب في لغته الأردية .. ومع معرفته العربية فقد كان يتعذر عليه النطق بها فترجمت كتبه إلى العربيـــة وإلى غيرها من اللغات .. والترجمة لا بدّ أن تدخل على الموضوع المترجم شيئاً من أثر المترجم .. أو تضعف من أثـــر المتَرجَم .. وهذا -في ظني- هو السبب الأكبر فيما نجده من تركيز مكثف جداً في مؤلفات المودودي .

المودودي وتوحيد العمل الإسلاميّ

جرت محاولات من أوائل الخمسينات لتوحيد العمل الإسلاميّ . وتكررت بعد ذلك مرات ومـــرات .. ولكـــن الأستاذ المودودي اعتذر ورفض ذلك . ومما أذكر من كلامه في إحدى المرات : إنّ التوحيد لا يكون على التجميـــع العددي .. فإن الأعداد لا قيمة لها في الفكر والدعوات .. بل إنّ الجنود-في مثل هذا الحال- تكرار للصفر في الجانب الأيسر !! ولكن بعد أن يتوحد الفكر بالمنهج السليم ينقل الصفر إلى الجانب الأيمن .. فعندما يكون للجندي القيمـــة الحقيقية .. لا الوهمية !!

ومما قال : وكيف نوحد الأفكار ونحن لا نلتقي إلاّ مرة كل سنتين ، في لقاء لا يطول أكثر من بضع ساعات ؟! وقد نجتمع بمن لم نعرف من قبل !! أو نجتمع مع من نسمي بعضهم اليوم قادة .. ونراهم غداً مع بعض الظلمة خداماً

وأعوانا !! وعلى هدنة معه على أقل تقدير !! إنّ التوحيد للجماعات يكون في جو من الحرية الكاملة ويكون اللقاء بين القادة والجنود ، وعلى أوسع نطاق !! ..

لقد رفض المودودي توحيد الجماعات الإسلاميّة توحيداً يظهر على السطح طلباً للمظاهر الجوفاء .. وطلــب أن يكون التوحيد في العمق .. بعد دراسة جادة هادفة لمنهج واحد .. واتصال مستمر بين القادة الثابتة المعروفة ، وبــين الأفراد والمؤهلين لحمل التبعة . إنّ التوحيد الفكري والثقافي ، واجب حتمي ، وأما التوحيد الإداري فمرفوض ، بــل هو ضار جداً وله مخاطر كثيرة .

وعذر المودودي بالرفض واضح ملموس .. وله أسباب وجيهة ، وقد وافق المودودي عدد من أهل الرأي والحكمة .. وكان ذلك عند البعض مسألة اجتهادية فيها نظر !!

وهنا يمكن أن نفسر اعتذار الداعية المودودي عن المشاركة في عدد من المؤتمرات ، أو المشاركة في الــبعض دون الآخر ، فإنه إذا ظن القدرة على النفع والتأثير حضر أو اعتذر ودعا ..

ولم يكن مؤمناً في قرارة نفسه بالمؤتمرات والتجمعات التي تقوم على العواطف فقط .. والتي تمولها الحكومات ، أو تشرف عليها الدول .. وحتى مشاركته في رابطة العالم الإسلاميّ تعتبر مشاركة رمزية مع أنه عضو مؤسس فيها .

وفي سنة 1958م دعته حكومة الجمهورية العربية المتحدة للمشاركة مع عدد من علماء العالم الإسلاميّ للمشاورة لإنشاء مجمع يضم المؤتمر الإسلاميّ الذي كان يرأسه السادات !! مع جميع المؤتمرات الإســلاميّة وجميــع الجهــات الحكومية والشعبية التي تتولى الدعوة للإسلام تحت قيادة واحدة !! فعرج على دمشق عند عودته من القاهرة وحدثنا بانطباعه .. وكان مما قال : إنّ هذه الدعوات ليست من حاكم مصر وحده ، بل هي من عدد من الحكــام العــرب والمسلمين ، دفعتهم إليها الجهات الأجنبية .. التي أحسّت بتمكن الإسلام في قلوب الشعوب المــسلمة .. وبــذور النهضة بدأت تؤتي أكلها .. أو كادت .. فتفتَّقت مخيلتهم عن هذه الحيلة الشيطانية .. وهي دفع المــسلمين لإقامــة عمل واحد يتولى شؤون الدعوة ، وقيادة العالم الإسلاميّ وتحريم العمل على غير المنضوين من تحــت هــذه القيــادة المشبوهة .. وبالتالي تحول هذه القيادة ومَن وراءها العمل الإسلاميّ إلى العمالــة والــسير في بركــاب الحكــام .. والمخططات الأجنبية .. والخسارة عند ذلك تكون على الإسلام ، والدعوات الصادقة !!

وممن دعي إلى القاهرة لمثل هذه المشاورات ، ورجع بانطباع مشابه لما رجع به المودودي : الشيخ أبــو الحــسن الندوي ، والمحدث محمد ناصر الدين الألباني ، والزعيم علال الفاسي ، والمفكر مالك بن نبي والفقيه محمد أبو زهرة

وممن حذر من هذا التجمع وإن لم يذهب إلى القاهرة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، وسماحة الــشيخ أمــين الحسيني .. وأما الذين عملوا في هذا الخط ، فلا أجد حاجة لذكر أسمائهم .

وجاء بعدها إلى دمشق حسن التهامي ، محاولاً جرّ علماء سوريا لذلك غير أنه لقي ما لم يسره فقد قيــل لــه : ارجع إلى مصر وأفرجوا عن علماء الإسلام ودعاته وبعدها تجد من يسمع لكــم .. وذهــب و لم يعــد !! وفــشل المخطط !!

ميزات الجماعة الإسلامية

لقد تأثرت الجماعة الإسلاميّة بفكر مؤسسها المودودي تأثراً واضحاً بارزاً ، ولذلك فإن الحديث عنه وعنــها لا يمكن إلاّ أن يتداخل ، وكان تأسيس الجماعة في شعبان سنة 1360هـ الموافق للشهر الثامن من سنة 1940م .

ومن هذه الميزات : أن المودودي لم يكن مقلداً أبداً طوال حياته العلمية ، بل كان نسيج وحده ، فما قبل المــزج والخلط في الجماعة ، و لم يقبل محاولات التجميع لكل من هبّ ودبّ ، بل أصر على وجود الفئة المختارة وهذا واضح في كتب الجماعة ، بل في طريقة تفكير أعضائها ، وحتى سيرُهم العملي متميزٌ عن سير غيرهم .. من العلماء والدعاة .. والأدعياء !!

ولذلك بقيت جماعته الإسلاميّة خالصة صافية شاملة متميزة

وقل أن تجد عنده –وعندها– تلمُّس الأعذار لكل خطأ أو قول سابق !!

ودعوته كانت –قبل أن تعلن عن نفسها– معروفة النهاية عنده مثل ما كان يعرف البداية ، فلم تكــن مظهــراً لانفعال عارض ، أو نزوةً من شاب متهور !! أو تجمع أطفال اتفقوا على قيام جماعة ، وكأنهم يشكلون فريق كــرة قدم يجمع أبناء الحارة !! أو تنظيم حلقة ذكر في مسجد القرية !!

وهذا واضح في رسالته (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) كل الوضوح فقد قال فيها (وغايتنــا : اســتخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربية الذين هم منــزهون عن السيئات القديمة والجديــدة .. ويــستعدون للقيام بها بكل تضحية بأموالهم وجهدهم في سبيل الحق) ص 56

لقد بدأ المودودي دعوته بانتقاء الأفراد ، وقام على تربيتهم ، وزرع بذرة الإصــلاح والعقيــدة الــصحيحة في نفوسهم ، وتثقيفهم الثقافة الإسلاميّة من منابعها الأصيلة (الكتاب والسنة) .

لقد كان المودودي واعياً عندما لم يتورط بعملية التجميع لأدنى سبب .. وقل أن سلمت جماعة أخرى من ذلك .

وكان المودودي –والجماعة معه– يعلن عن تمسكه بالكتاب والسنة حسب ما وصل إليه علمه أو علــم قيــادة الجماعة وأفرادها المختارين فلا يقوم عمل قبل عرضه على الكتاب والسنة ، ثم تنظر بعد المصالح الدنيوية بالاجتــهاد المناسب ، المبني على القواعد السليمة

وكانت الجماعة تنادي بالحاكمية لله .. و لم تكن تقبل بالمظهر الذي لا طائل تحته لفظ (دين الدولة الإسلام) بــل تراه نوعاً من الخداع يصرف الناس عن المطالبة بالتشريع الإسلاميّ .. فهذا شعار وتلك حقيقة واقعة !!

وكانت هذه هي سبب المفاصلة بين الجماعة وبين الحكومات التي توالت على الحكم في باكستان .

وقد شاركت الجماعة في وزارة التحالف الوطني بعد سقوط بوتو .. ثم انسحب وزراء الجماعة من الحكم ليكون دخول الجماعة في الانتخابات ، وليس لها أي وزير في الحكم ، لتأكيد القناعة عند الناس بنــزاهة الانتخابات ، وحتى يعرف الناس أن الإسلام يعطي الحرية للناخبين خلافاً لقاعدة 99,99 !!

ومما امتازت به الجماعة الابتعاد عن المركزية ما أمكن ويشاركها في هذا عدد من الجماعات الإسلاميّة الواعيــة ، وهو ما أثبتت التجارب صلاحه . فحين انفصلت الباكستان عن الهند أقام أعضاء الجماعة في الهند تنظيماً خاصاً بهم . واختاروا لأنفسهم أميراً منهم . برضاء أمير الجماعة أبو الأعلى المودودي .. بل كان اختيارهم من غير تــدخل مــن الجماعة (الأم) لأن المودودي لا يؤمن بالقيادات التي تعين من الأفراد والحكومات .

وكذلك عندما انفصلت البنغال عن باكستان سنة 1971م فقد أصبح للجماعة في بنغلادش أمير خاص بهم وقيادة محلية تقرر ما فيه مصلحتهم .. وبسبب الاضطهاد للجماعة في بنغلادش فقد أقام أمير الجماعة خارج بنغلادش عــدداً من السنوات .. ولو أن الجماعة بقيت بأمير واحد وهو مؤسس الجماعة بحكم الاستمرار وهو حي يرزق ، لما كان في ذلك أي ضرر .. ولكن الأمور عند أبي الأعلى كانت قواعد ثابتة لا يجوز التلاعب بها .

العمل العلني والشورى

لقد امتازت الجماعة بالعمل العلني طول سيرها فلم تتورط بعملٍ اليوم ، تجد نفسها ملزمة بإعلان البراءة منه غداً ، أو ساعة الشدة ، أو بعد أن ينحرف ويطغى !!

وكذلك لم تحِد الجماعة قيد أنملة عن نظام الشورى الذي أعلنته على الملأ ، بل حافظت عليه ، واحتكمت إليه ، حتى في أشد الأيام قسوة على الجماعة . يوم أن كانت منحلة بحكم القانون الجائر وأيام لقي وأتباعه القتل الجماعي ، من الطوائف الأخرى كالسيخ ، الهنادكة وحتى القاديانيين . ولا في الأيام التي حكم فيها عليه بالإعدام أكثر من مرة

وبالسجن مرات ومرات وسجن العديد من إخوانه في مختلف الظروف تحت حكم المستعمر الإنجليزي والحكم الوطني وحكم العسكر ..

لقد بقيت دعوته علنية شورية واضحة ، تحارب الاغتيال السياسي ، وترفض الاقتتال الطائفي وتنبذ العنف الذي لا يقره الإسلام .. وما سمعنا – رغم كل المحاكمات أن الجماعة اتهمت بنظام خاص ، أو عمل ســـري ، أو اغتيـــال سياسي !! واسمع المودودي يقول في رسالته (واجب الشباب المسلم) الصفحة 26 عندما اجتمع مع الشباب العـــرب في سنة 1381هـ قال :

لا تقوموا بعمل جمعيات سرية لتحقيق الأهداف ، وتحاشوا استخدام العنف والسلاح لتغيير الأوضاع لأن هـــذا الطريق نوع من الاستعجال .. إنّ هذا الطريق أسوأ عاقبة وأكثر ضرراً من كل صورة أخرى وإن الانقلاب الصحيح السليم قد حصل في الماضي –وسيحصل كذلك في المستقبل– بعمل علني واضح وضوح الشمس في رابعة النـــهار .. فعليكم أن تنشروا دعوتكم علناً ، وتقوموا بإصلاح قلوب الناس وعقولهم بأوسع نطاق وتسيروا بالنـــاس لغايـــاتكم المثلى بسلاح من الخلق العذب والشمائل الكريمة والسلوك الحسن والموعظة الحسنة والحكمة البالغة وأن تواجهوا كل ما يقابلكم من المحن والشدائد مواجهة الأبطال .. هذا هو الطريق .. إلى آخر ما قاله المودودي ..

مع العلم بأن المودودي والجماعة الإسلاميّة لم تهادن الحكام في أي ظرف من الظروف .. ولكـــن معارضـــتها لم تتعدى النصح و لم تصل إلى الأعمال السلبية المستترة .

وعلى كل حال فإن الدارس المتأني لن يستطيع في سنوات الوصول إلى دراسة المودودي والجماعة الإسلاميّة دراسة وافية أو بيان الفرق بينه وبين غيره من الدعاة .. وبينها وبين غيرها من الدعوات

غير أننا بنظرة عامة نستطيع أن نجد أن أثر المودودي في جماعته أكبر من أثر أي داعية آخر في جماعته في عـــصرنا الحاضر بل إننا نرى كثيراً من الدعوات وحتى المذاهب العقائدية والفكرية والمذاهب الفقهية قديماً وحديثاً قد انحرفت عما خطَّ لها أصحابها انحرافاً قد يكون كبيراً جداً عند البعض .

وأنا أقول هذا بصورة مجملة .. وإن كنت أرى أن بعض التغير في الجماعات والأفكار قد كان نحـــو الأحـــسن والأصلح .. فليس كل تغير مذموم .. ولا كل جمود ممدوح !!

ومن الأمور الظاهرة في الجماعة الإسلاميّة ممارسة النقد الذاتي للجماعة ولقادتها من قبل الأعضاء جميعاً ، بل وحتى سماع النقد من الذين ليسوا من الجماعة ومناقشتهم في ذلك علناً والأخذ من آراء هؤلاء وتطبيقها في الجماعة .